

المديح والصوم

"افرحي يا عروساً لا عريس لها"

ما هي علاقة المديح بالصوم؟ ولماذا يتلى فيه مساء يوم الجمعة عن سحر السبت؟
رُتبت الكنيسة أن نصلي المديح، بالأصل، في سحر السبت الخامس من الصوم. ويتلى يومها
بكلّيته أي الـ ٢٤ بيتاً. ثم أدخل، بعد تقسيمه إلى ٤ مجموعات من ٦ أبيات، على الأربع أسابيع الأسبق
أيضاً. وجرى نقله، كما في صلوات الأسبوع العظيم، إلى مساء الجمعة بدل سحر السبت لأسباب
رعائية، حيث حضور المؤمنين ممكن أكثر.

ولكن ما هي علاقة المديح بالصوم، ولماذا يرثل في سحر السبت؟ الترنيمة الأهم التي تتكرر في
المديح هي "افرحي يا عروساً لا عروس لها" وتتكلّم عن عرس. كما تسمّى العذراء بالأبيات "خدر
العرس البتولي" (البيت ١٩). وهذا العرس البتولي كان غاية الخلق منذ البدء. لقد خلق الله العالم في
ستّ مراحل، ولم يخلق الله هذا العالم ليرميه، وإنما ليُتحدّه به وبشاركه في مجده. لذلك خلق الله النور
والسماوات والحيوانات... وفي النهاية في اليوم السادس خلق الله العروس التي يريد أن يخطبها لنفسه
لا غضن فيها ولا دنس. وهذه العروس هي الإنسان، الذي سوف يشاركه في حياة الحبّ التي في
الثالوث. لكن مسيرة هذا العرس الإلهيّ البشريّ تعثرت في الفردوس. ولم يترك الله عروسه الإنسان بل
بتدبيره وحبه أرسل الأنبياء ووضع الشرائع وكلّ ما تمّ في العهد القديم في سبيل تدريب الإنسان
وتنشئته الروحيّة، بحيث يأتي المسيح الكلمة الأقنوم الثاني ويزفّ لنفسه الكنيسة عروساً مجيدة.
فيتحدّ هكذا الله بالإنسان أقنومياً في تجسّد الربّ يسوع. ويؤسّس المسيح كنيسته على الأرض، لتزفّ
إليه كلّ إنسان يحيا فيها عروساً له.

في التجسّد الإلهيّ تمّ الزفاف الحقيقيّ الأوّل والكامل. حين اتّحد الله بالإنسان. وما كان مرجوّاً
للسبت الأوّل في الخلق بالفردوس تحقّق بالتجسّد في شكله الأكمل. وهنا في هذا الحدث كانت
العذراء هي خدر هذا العرس البتولي. في البتول تمّ اتحاد الله بالإنسان. فهي التي جمعت الله بالإنسان
وصارت "خدرّاً للإله الكلمة" كما تسميها ترانيم المديح. غاية أيام الخلق الأولى كان يوم الخلق الأخير،
عند خلق الإنسان. لا يحتاج الله للخليقة ولكنّه أوجدها من أجل حياة عروسه، الإنسان. الغاية التي

أخفقت في الفردوس تحققت في التجسد. وهنا كانت البتول خدر هذا العرس الإلهي الإنساني. لقد كانت البتول، في هذا العرس، هي الخدر والعروس أيضاً. والآن صارت الكنيسة هي الخدر لهذا العرس لكل إنسان أي لكل عروس. والبتول هي خادمة هذا العرس. ما تمّ بالبتول يتمّ بالكنيسة اليوم، وكما كانت العذراء خادمة العرس عند التجسد صارت خادمةً لعرس كل نفس بشرية ولتهيئتها عروساً للمسيح.

تهيئ الكنيسة النفوس من أجل هذا العرس. إنّها الخدر الجديد الذي يحقق ما تمّ بالتجسد مع المسيح، وما سيتمّ بالأسرار والحياة الكنسية في كل إنسان، أي الاتحاد بين الله والإنسان؛ الاتحاد بين يسوع وكل نفس بشرية. هكذا يتحقق ما يختم به سفر الرؤيا في آخر آيات الكتاب المقدس، "حيث يصرخ الروح مع العروس تعال أيها الرب يسوع"؛ وهذه غاية الوجود الإنساني.

التربودي - الصوم الكبير هو أهمّ فترة زمنية ربّتها الكنيسة لتحضير النفس البشرية وتنقيتها وتهيئتها عروساً للمسيح نقيّة طاهرة. ولهذه الغاية وضعت الكنيسة الأصوام. وهذه الأصوام تعني، من جهة أولى، الانقطاع عن الطعام وممارسة الإحسان وتكثيف الصلوات... ومن جهة ثانية، حدّدت الكنيسة بالإضافة إلى ذلك أصواماً ليتورجية أيضاً. تظهر في الخدم الإلهية مثل اللباس والخشوع وجوّ التوبة و"الحزن البهّي"، وذلك طيلة الأيام الخمسة الأولى من الأسبوع. لذلك حدّدت أيضاً ألا يتمّ فيها قداس إلهي، من حيث أن طابعه هو القيامة والغلبة والنصر. وربّبت أن ننمّ طيلة أيام الاسبوع صلواتٍ خشوعية جداً فقط. بحيث يتمّ القدّاس الأوّل يوم السبت، والثاني يوم الأحد. وللمناولة خلال الأسبوع يتمّ استخدام الحمل السابق تقديسه من قداس السبت أو الأحد. فيصوم المؤمنون ليتورجياً من الاثنين إلى الجمعة في جوّ من الحزن البهّي، يقام يوم السبت القدّاس الإلهي، وكأنّ أيام الاسبوع كلها هي للاستعداد حتّى يتقدم المؤمنون إلى العرس الحقيقي للاتحاد بدم الربّ وجسده الكريمين يوم السبت ثم الأحد.

يسهر المؤمن الأيام الأولى من الأسبوع في الصلاة وأتعاب الصوم والسجّات ليؤهل ذاته عروساً نقيّة يزقّها الربّ يسوع في قداس يوم السبت ثم الأحد عروساً له. لذلك ليلة الجمعة - السبت هي ليلة الزفاف الليتورجي، إنّها ليلة أو - سحر القدّاس الإلهي للاتحاد بالربّ.

وهنا في مساء الجمعة ليلة الزفاف الليتورجي لكل مؤمن، يلعب المديح ليتورجياً الدور الذي لعبته العذراء كخدر للعرس البتولي الإلهي في التجسد. كما كانت العذراء صلة الوصل بين الله والإنسان في التجسد، هنا المديح يصير صلة الوصل الليتورجية بين أيام الحزن البهي ويوم الزفاف الإلهي للمؤمن.

ترتل الترنيمة للبتول "افرحي يا مزينة النفوس بزينة العرس"، وهذا ما يحققه المديح. لعل المفاجأة التي يصطدم بها المؤمن ليلة الزفاف، أنه يجد ذاته غير مستحقة لهذا الأتحاد الإلهي. هذا ما يقوم به المديح، إنه يوشحنا برداء العرس. حين ينظر المؤمن في العذراء صورته المفقودة، صورة العروس الطاهرة، وحين ينشد مرثياً للعروس الأم والخدر والخادمة لكل عروس بشرية، تقوده ترانيم المديح إلى طهارة النفس وتقوم به من الحزن البهي إلى فرح الخدر البتولي. العذراء هي الخادمة لعرس كل نفس. والمديح يلعب هذا الدور. في المديح تتم أيضاً شفاعاة العذراء، وما فينا من غير استحقاق تطهره شفاعاة العروس التي لا عريس لها.

إننا بالمديح ننظر في العذراء المحبة، والتواضع، والطهارة والتكريس. ونعاين في ترانيمه صورة العروس الحقيقية المدعوين جميعنا إلى مثلها. تكمل صلوات المديح التوبة التي بدأت أيام الأسبوع الأولى.

أيام الأسبوع بالحزن البهي هي أيام التوبة في محاولتها، والمديح مساء الجمعة (عن سحر السبت) يقودنا إلى التوبة في كمالها. لذلك تنطبع أيام الأسبوع في الصوم بالحزن البهي وينطبع يوم السبت ويوم الأحد بمراسيم الزفاف، زفاف النفس المكتملة بالتوبة.

العذراء هي الخدر في التجسد وهي خادمة هذا السر لكل نفس. المديح ليتورجياً يزقنا في الصوم، بشفاعة العذراء ومثالها الذي يقودنا إلى التوبة، يزفنا بعد أيام الحزن البهي إلى الأتحاد في القداس يوم السبت والأحد.

"السّلام عليك يا خدر العرس البتولي"

"السّلام عليك يا من تصالحين المؤمنين (بالتوبة) مع الرب"

"السّلام عليك يا مزينة نفوس المؤمنين بزينة العرس"

"افرحي يا عروساً لا عروس لها"